



عبدالحميد

بعد أن شوَّه سمعته وسيرته

قهر إنسانية أخيه مراد **مُراد الخامس بن عبدالمجيد الأول (1840-1904م)، الذي قُدِّر له أن يُعَاصِر الفترة الفوضويَّة من** تاريــخ الدولة العثمانية التي تركز فيها الصِراع بين التيارين الإصلاحي والمُحافظ. وشــخصية مراد لم تكن بعيدة عن شـخصية أخيه عبدالحميد من حيث التأزم النفســي والعُزلة والرهاب، فالظروف التي

من حوله أو فهم المجتمع المحيط حوله، خاصةً من رجال الحكومة، وعلى رأسهم المتنفذين. والاسم الأكثر تداولاً خلال فترة حكم ثلاثة سلاطين: عبدالعزيز، ومراد، وعبدالحميد؛ هو مدحت باشـا، وكانت له اليد الطولى في عزل عبدالعزيز ومراد، وتولية عبدالحميد الثاني، وكان يشغل منصب الصدر الأعظم (رئيس الوزراء)، ومهندس المطالبة الدســتورية. يُضاف إليه وزير الحربية حسين عوني باشا، وهو الذي اقترن اســمه بمدحت في أحداث الفوضى السياسية منذ عزل عبدالعزيز حتى اغتيال عوني في عهد مراد الخامس.

شكُّلت شـخصية مُراد، وأرخت بِظلالها عل انفعالاته وتفاعلاته، تتركز في عدم قدرته على التعاطي مع

تولى السلطان عبدالعزيز الحكم سنة (1861م) بعد أخيه عبدالمجيد، وكعادة العثمانيين فإنهم كانوا يمارسون ما يُسمى بأقفاص الأمراء، لكل من هو مؤهل بأن يتولى السلطنة، بحيث يصبح معزولاً عن المحيط العام حتى لا يؤثر على ســير الســلطان في حكمه، إما بثورة أو تنظيم قد يقلقه، وقد جاء نظـام الأقفاص نتيجةً لتخفيف قانون قتل الإخوة الذي كان معمـولاً به فترة طويلة من تاريخ الدولة العثمانية، الذي أحدث أزمة سلالية في الأسرة العثمانية، وبناءً عليه كانت ولاية العهد والسلطنة تؤول إلى من هو أكبر سنًا من بني عثمان المهيّئين للسلطنة من أبناء السلاطين السابقين.

عصفت بالدولة مجموعة من الأحداث، منها التدخلات الأوروبية من خلال رجال الدولة المؤثرين

اعتلاء العــرش بعد زياراته الأوروبية بمرافقة عمــه، التي عُمِّد خلالها في المحافل الماســونية، وأبرز موهبته الموسيقية في تأليف معزوفات أصبحت عالمية بعد ذلك. غير أن مرادًا لم يكن يجنح إلى العُنف، لذلك كان اتفاقه مع الوزراء أن يتــم عزل عمه فقط، في الوقت الــذي كان فيه يطمح إلى أن تســير الأمور منع عنه الأقلام بسـهولة، فوجئ بـأن عزل عمـه عبدالعزيز جرى

والصحف والأوراق

وأشاع أنه أميٌّ.

على رأسهم مدحت وعوني، اللَّذَين كان لهما تأثير واضح على وريثه مراد الخامس، الذي أبدى رغبته في

بطريقة انقلاب عســكرى، انتهى بقتــل عبدالعزيز والإشاعة بأنه انتحر، الأمر الذي أثر على مراد وأصبح يعاني من سيطرة الوزراء، لدرجة أنه كان يخافهم ويتوقع بأنهم سيقومون بتكرار الأمر معه وإعدامه. لذلك لــم يكن مراد متوازنًـا، وأبدى بعض التصرفات غير العقلانية وغيــر المنطقية، خاصةً بعدما حدث من حالات اغتيال في مجلس الوزراء، التي راح ضحيتها وزير الحربية حسين عوني أمامه. في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية

تعيش فترة الفوضي والارتباك بالعيزل والقتل واعتلال مراد العقلي؛ كان عبدالحميد يعمل من خلف الكواليس ليُهندس الوضع لصالحه، فباعتباره ولى العهد الثاني في عهد عمه عبدالعزيز والأول بعد مراد؛ كان باستطاعته أن يتدخل بعمل توازن لموقفه الذي بدأ يتدهور ويتسارع بأحداثه،

غير أن عبدالحميد كان يســعى لفرض نفسه، في الوقت الذي كانت فيه الظروف تجعله خيارًا حتميًّا لجميع الأطراف لإنقاذ الموقف. راقب عبدالحميد الأحداث من بعيد، لكنه كان حاضرًا في المشهد مع أصحاب القرار، ولم يُبيِّن أيَّ ردة فعل تجعل المحيطين به يتَوَجَّسـون من موقفه. لذا عُرف عنه أنه دائمًا ما يجتمع مع مدحت باشـا، وفي اجتماعاتهم التي كانت تُعقد؛ كان مدحت يعي أن عبدالحميد هو الخيار الماثل أمامهم في الوقــت الذي كان فيــه مراد يخفت نجمه ســريعًا، بينما كان عبدالحميد أيضًا يعــي جيدًا أنهم مهما استبدوا وصاغوا الموقف السياسي، ســيضطرون إليه في النهاية ليعتلي عرش السلطنة العثمانية. لذلك حرص أن يكون على اتفاق واتسـاق مع كل من كانت بيده السلطة، فاتصل بأكبر عدد ممكن من المســؤولين، وحرص علــي معرفة كل ما كان مثار نقاش على الســاحة كي يبقى حاضرًا مســتوعبًا

عبدالحميد وأبدى قناعته بالدستور مبدئيًّا بفتور غير متحمس.

السلطنة، ويستمر في حياة الفوضي والارتباط العقلي الذي كان يعانيه.

للحدث، وهذا ما جعله يســتفيد من ذلك في صياغة الموقف بعد أن تولى الســلطنة، بحكم معرفته بنقاط الضعف لجميع من كانوا حوله. كان عبدالحميد شديد الشُّك والتَّوهُم الذي يُعدّ فوق العادة، وقد اشتُهر بذلك منذ فترةٍ مبكرة مـن عمره، فقد كان أخوه مراد يتندَّر بشــكِّ عبدالحميد، ويمازحه بإيهامه بشــكوك غير حقيقية، كان عبدالحميد يتعامل معها بكل جديَّة. وخــلال فترة ارتباك وزراء مراد الخامس؛ كان عبدالحميد يتعامل معهم بحذر ويدقق في نقاط ضعفهم جيدًا، لذلك لم يكن يســتجب لضغوطهم عليه بســهولة، ولم يُبدِ لهم حرصه على عزل أخيه مراد وتوليه العرش بدلاً عنه، حيث جعلهم من يحاولون إقناعه بما كان هو يتأمله بشكلِ غير مباشر. تردَّد مدحت وأصدقاؤه على عبدالحميد قبل عزل مراد، وعرض عليه فكرة تنصيبه سلطانًا، غير

مراد مما ألمَّ به، لذلك اضطر مدحت إلى عرض مراد على طبيب نمسـاوي وقيل إنجليزي اسمه ليدرز دورف، متخصص بالأمراض العقلية والعصبية، وقدَّم تقريرًا بأن حالة مراد العقلية قد تتحسن، ولكنه قد يحتاج إلى وقت كي يعود إلى طبيعته، لكن مدحت أعلن الخبر في الصحف بأن السـلطان مصاب بمرض عقلي من دون أن يشــير إلى قول الطبيب بأنه قد يتشــافي خلال أســابيع، ومن ثم ألحَّ على عبدالحميد لمعرفة رأيه في الدســـتور، ومدى حماســـته لإعلانه فيما لو أصبح ســلطانًا، واســـتجاب

أن عبدالحميد طلب التريث في ذلك، وحـاول أن يضغط هو بدوره على مدحت بفكرة أنه ربما يتعافى

ويُصـادق عليه، ثم انتقل من مرحلة الظِّل إلى الميدان السياســـى، حيث أصبــح موجهًا لمدحت بأن يطلب مصادقة العلماء على عزل مراد، وأن يُقدِّم له دراسة عن مشروعه الإصلاحي والدستور، وبالفعل قام مدحت بجمع رجالات الدولة في منزل شيخ الإسلام، وبعد التدوال؛ ارتأى الجميع مناسبة المشروع وضرورة إعلانه، وبقى قليل منهم متحفظًا، غير أنهم في النهاية وافقوا رأى الأغلبية. بعــد ذلك فوَّض عبدالحميــد الوزراء بمهمة خلع مراد، وإصدار فتوى شــيخ الإســلام بخلعه ومبايعــة عبدالحميد، بعد أن حكم مراد 93 يومًا فقط، وذلك بعد أن انتزع مدحت وعدًا من عبدالحميد بإعلان الدستور، وهو الدستور الذي صاغه عبدالحميد ليكون تحت سلطته المباشرة، مستغلاً اضطرار مدحت إليه.

ومع الوقت وازدياد تدهور الوضع؛ بدأ عبدالحميد يؤكد بأنه لو أصبح سـلطانًا سيُعلن الدستور

حينمـا أعلن عن عزل مـراد، كان عبدالحميد يعلم بتقرير الطبيب، الذي قـال بأنه يحتاج إلى

أسابيع كي يتعافى من مرضه العقلي. لذلك سارع بأن بإسكانه في قصر جيرغان، وهيأ له ترفيهًا

محـدودًا، بعد أن أنقص عدد أفراد حاشـيته، ووفر له كل متطلباته كي ينشـغل بها عن التفكير في

ومن جهة أخرى، تفرَّغ عبدالحميد لمدحت ورجال الدستور، وحوَّله إلى وثيقة استبداديَّة، فعلى الرغم من أن مدحت اسـتفاد من الدستور البلجيكي والروسـي في صياغة دستوره، إلا أن عبدالحميد أصرَّ على حقه كسـلطان بتعيين أعضاء الحكومة بشـكل مباشـر، لذا كانت الحكومة مسؤولة أمام السلطان وليس أمام البرلمان، الذي لم يكن بمقدوره سنَّ القوانين، ولم يكن متاحًا له سوى مناقشتها قبل صدورها، واحتفظ الســلطان بحقِّه المُطلق في عقد أو حلّ البرلمان، لذلك ما أن هُزم أمام روسيا

بعد سنتين من حكمه حتى عطِّل الدستور، الذي بقي معطلاً فعليًّا، وساريًا بشكلٍ فني.



أحمد شفيق مدحت باشا،

واشـــتُهر بمدحــت باشــا، ولــد فــي

إسطنبول سنة (1823م)، وعاش في

كنفِ أسرةٍ متوسطة، وترقى في العمل

الإداري والمناصب الحكومية، ويُعدُّ أحد

أشهر السياسيين العثمانيين، ويطلق

عليه أبو الأحرار، تولى منصب الصدر

الأعظم ووزير العدل، وكان واليًا على كلّ

من: سوريا، العراق، سالونيك، توفي في

الطائف مقتولاً سنة (1884م).

الحربية أكثر من مرة في عهد السلطان عبدالعزيز. 1) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمـة: عدنان محمود (إسطنبول: مؤسسة فيصل، 1988م). حين نُقل مراد إلى قصر جيرغان مُنع مـن الاختلاط بالناس، وحُرِّم عليه الخروج من قصره القصور التي يزورها الأجانب بقصد الســياحة، ففي الوقت الذي يأتي فيه وفدٌ ســياحيٌ لقصره؛ كان يُحظر عليه وأســرته من الخروج من غرفهم، حتى لا يراهم أحد. وكانــت لدى عبدالحميد أزمة تجاه مراد، فقد صوَّره في مذكراته بأنه غير واع وغير مثقف أو مُتعلِّم، وهذا بخـلاف الواقع الذي يطلع عليه كل قارئ لسـيرة مراد الخامـسَ، وكانت له آراء متناقضــة تجاه مراد، ففي الوقــت الذي كان يصفه فيه بالإســراف، يقول بأنه عُــرف عنه الطمع الشَّديد، وهذا بحسب ما ذكره تحسـين بك المقرَّب من عبدالحميد، إذ ذكر أن مرادًا كان أكثر إخوة عبدالحميد قربًا وحبًا، بســبب أن عبدالحميــد كان معجبًا برأى مراد وذهنــه المتفتح. وهذا أيضًا تناقض آخر من عبدالحميد تجاه مراد، إذ وصف عبدالحميد في مذكراته شـفقته على أسلوب أخيه

ولد سينة (1820م) في قونية،

أكمل تعليمه والتحق بالعسكرية

وتخرِّج منها برتبة ملازم، وترقى في رتبه

العسـكرية حتى وصل إلى رتبة فريق،

وعُيّن في منصب الصدر الأعظم ووزير

ومما يُعطى دلالةً على ثقافة مراد الخامس؛ أنه كان على اتصال واســع بأهل الفكر والأدب، وهــذا لا يمكن أن يتأتى إلا بكونه محبًّا لــلأدب والثقافة والعلم، ومما يؤكــد ذلك علاقته الوطيدة بنامق كمال، التي كانت تُضايق عبدالحميد، حين كان يقول لنامق الذي يعتبره رأس الفســاد: "اعلم

يا كمال بك أنك ستتســبب في موت أخي معنويًا وعقليًا".

لماذا منع عنه جميع أدوات الكتابة من أقلام وأوراق؟.

مرض الشُّكري.

مراد الركيك في كتابة الرسائل، وأخطائه الإملائية التي لا تُغتفر.

ويتضــح من خلال تتبع الأحداث وتدخلات عبدالحميد فيها قبل توليه؛ أنه كان يُهندس لبقاء أخيــه مراد علــي حاله العقلية الســيئة، حتى يتمكن مــن الوصول إلى الســلطنة، إذ كان موافقًا ومتناغمًا مع الطّرح الذي كان يبرزه مدحت باشـا للإعلام العثماني، في المبالغة بعرض حالة مراد العقليــة المتدهورة، وحياكة الأخبار المغلوطة عنه، وقد ثبت من خلال المصادر بأنها كانت ملفقةً في كثير من تفاصيلها. ومن الواضــح أن تفاصيلَ دراميــة عدَّة كانت تُصاغ عــن حالة مراد الخامــس قبل توليه الســلطنة وبعد عزله، لكنها في الغالب دراما كئيبة جدًّا ومأســاويَّة، خاصةً بعــد حياة العُزلة التي فرضها عبدالحميد عليه، إذ كان يُعتبر سـجينًا لدى أخيه، وبذلك سُـقحت إنسانيته بطمع السُّلطة والســلطنة على مدى 19 عامًا قضاها على هذه الحال، التي كان يُمــارس فيها حياةً صامتة، بعيدًا

وإجابة هذا التسـاؤل تؤكد حالة الرُّعب التي كان يعيشـها عبدالحميد من أن يكتب مراد ما فــى مخزنه الفكري من تحليل وأحداث وتحليلات، حتمًا ســتتناقض مــع ما كان يحاول أن يصوره عبدالحميــد عنه، والأكثر رعبًا أيضًا لو أنَّ مُراد كتب مُذكراته، كما فعل عبدالحميد الأمر نفســه بعد عزله حين مُكِّن له أن يكتب مذكراته، إن صحَّت نسـبتها إليه، مع أنه كان يفترض أن يُجازى بجنس ما فعله مع مراد، ولو أن أمرًا كهذا قد لا يكون مرغوبًا لدى المؤرخين والمحللين السياسيين. يبدو أن الظروف كانت أقوى من مراد الخامــس ومن آماله، فالحالة التي صُوِّر بها والحياة التي فَرضت عليه تُخبئ الكثير من الأســرار التي لم يتم الكشــف عنها حتى الآن، ولو أن شــيئًا تُرك

خلـف مراد؛ فمـن المؤكد أن عبدالحميـد أخفاه أو أتلفـه؛ لأن مثل هذا الفعل يتـواءم كثيرًا مع

شـخصية عبدالحميد الاسـتبداديَّة، التي تؤكد معاناته بفوبيا المؤامرة، وإحاطته نفسه بعددٍ كبير

من الجواسيس والحرس ورجال الشـرطة، بل إن كل من كان في خدمة مراد في منفاه في القصر

كان يعمــل في خدمة مراد بعد عزله؛ يُحكم عليه بالعُزلة مثله، ولا يمكن أن يخرج من جيرغان حيًّا. فهذه الهالة والعُزلة جرَّت معها الكثيرين من أسـرة مراد ومن كانوا يعملون في خدمته. وعلي الرغم من بؤس مراد؛ إلا أنه عُرف عنه أيضًا أنه كان موسيقيًّا من طراز فريد، بل إنه كان شـغوفًا بالبيانو والعزف علـى الكمان، فقد قدَّم أكبر عدد من المؤلفات الموسـيَقية الغربية، يقال: إنها بلغت ما يقارب ثلاث مجلدات، إضافةً إلى حبِّه وتعلقه بالعمارة والفن المعماري والرسم. ظــــلَّ مراد ما يقارب 28 عامًا في جيرغان حتى توفي، متأثرًا بالمرض، واســـتمر وضع عائلته

ولا أســرته أن يخرجوا من عزلتهم، ولا أن يدلوا بأي شــيء عما يختزلــوه في ذاكرتهم من أحداث أو تفاصيل. وكان عبدالحميد يتظاهر بحُبِّ مراد، ويحاول أن يُشيع ذلك، سواءً في مُذكراته المزعومة، أو ما كانت ابنته تحاول إشاعته عنه حبسه في قصره بأنه تأثر كثيرًا عندما علم بوفاة مراد، وبكى بكاءً

(1908م) خــلال الانقــلاب العثماني، عندما خرجوا للشــارع أول مــرة بحالة مــن الابتهاج والفرح

الهستيري بخلاصهم من سجن السـلطان العم، وهذا أيضًا يؤكد أن عبدالحميد لم يكن يريد لمراد

فرضها عبدالحميد باسـتبداده وسلطويته، التي كانت أبعد ما يكون عن المعانى الإنسانية، مهما ادعى هــو أو ابنته أو من يبررون لــه فعلته، فإن كان يــرى بــأن مــرادًا كان مُجرمًا فــى انتمائه للماسـونية؛ فإن عبدالحميد نفسـه كان يعرف كثيرًا من أعضاء المحافل وعلى اتصال بهم، وقد مكنهــم من الســلطة فــى عهده، وســمح لهم بممارســة نشــاطهم تحت ســيطرته التي كان يتوهمها، ولا أدلّ على ذلك من عفوه عن على سـعاوى الـذى انقلب عليـه، وهو يعـى تمامًا ماسـونيته وارتباطاته بالمحافل، بل إنه مــكّنه من السلطة والسطوة حتى خرج عن مساره. لذلــك فإن الجريمة الحقيقية التي دعت عبدالحميــد لحبس مراد وإغراقه بالانعزال، وقهر إنسانيته وسحق بشريته مع عائلته؛ كانت تنصب على أنه كان مهددًا لبقائه على عرشه، وهذا ديدن عبدالحميد فيمن يشك في تهديدهم لسلطويته.

بكثير في حالهم، حين فكوا قيود الجبروت التي

1) أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ط3 (القاهرة: دار الشروق، 2003م). 2) زكريا بيومي، قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين (جدة: عالم المعرفة، 1991م).

الدار العربية للموسوعات، 2011م). 4) تحسين بك، السلطان عبدالحميد الثاني، ترجمة: كمال أحمد خوجة (الكويت: ذات السلاسل، 2017م).

5) عائشــة عثمان أوغلي، والدي السلطان عبدالحميد الثاني، ترجمة: صالح سعداوي

6) عبدالمسيح الأنطاكي، نيل الأماني في الدستور العثماني (القاهرة: مطبعة العرب، 1908م).

7) محمد فريد بــك المحامى، تاريخ الدولة العليّة العثمانية، تحقيق: إحسـان حقى

10) مصطفى أرمغان، التاريخ السِّرى للإمبراطورية العثمانية، ترجمة: مصطفى حمزة

8) مذكرات السلطان عبدالحميد، ترجمة: محمد حرب، ط5 (دمشق: دار القلم، 2012م). 9) مراد دومان، ذكريات الســلطان عبدالحميد الثاني، ترجمة: أحمد عمر (القاهرة: دار

(بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2014م).

(عمِّان: دار البشير، 1991م).

النيل، 2016م).

3) مارى ملز باتريك، سـلاطين بنى عثمان الخمسة، ترجمة: مركز المؤسسة (بيروت:

(بيروت: دار النفائس، 1981م).

عـن جميع أصدقائه وأقاربه والناس جميعًا، لذلك كانت تمرّ أيامه حزينة وبائسـة، يُعانى فيها من كمـا منع عبدالحميد دخـول الكتب والصحف لمراد؛ وذلك يعطى مؤشـرًا على أنه لم يكن كما وصفه أخوه فــي مذكراته، بل إنه معروف بأنه يمارس الكتابة ولو مُكِّن له الأمر لأصبح أشــهر كُتَّابِ الأتراك على الإطلاق، إذ يروى عنه الكثير من الشــواهد التي تؤكد ذلك وتشــهد بتفكيره الحرّ

وحكمته. ثم إن كان يخشــى عبدالحميد إدخال الصحف والكتب عليه لسببِ أو آخر ممكن تحليله؛

كانوا من جواسيس عبدالحميد، وعلى اتصال تام به يفيدونه بكل تفاصيل حياة مراد، لذلك كل من تحــت الإقامة الجبرية كما كانــوا في حياة مراد، حتى قامــت الثورة على عبدالحميد الثاني ســنة

وعزله عن العالم غزيرًا، بينما يدين الواقع والأحداث والشواهد عبدالحميد فيما قام به من قهر لإنسانية مراد الخارجي وادعى تأسيه وعائلتـه ما يربو على ربع قرن من الزمان، كما أنه عليه وحبه له. لم يشعر بالندم، ولم يتخذ إُجراءً يُكفِّر فيه عن جريمتــه الإنسـانية بفكِّ أســر أُســرة أخيه، بل استمرَّ في حبســهم ونفيهم في قصر أبيهم إلى أن كان الشهوار خلال الانقلاب العثماني أرحم منه